المرأة التي كسرت ظهر العقّاد!

سليمان سالم كشلاف

- ١ -

إذا كانت الكتابة الابداعية هي في الأساس حاجة للقول والتعبير، مخططاً لها مسبقاً أو مندمجة بين التخطيط وبين التدافع، كقطرة الماء التي تندلق من على حافة كأس مملوءة لتجسر خلفها زخماً من القطرات، لاحقة بالقطرة المسببة لهذه الحركة ـ فإننا ندرك أن هذا القول والتعبير هو شحنة انفعالية تأتي على شكل فيض من الكلمات، وسط عالم متغير حيناً، متقلب حيناً آخر، ساكنٍ في كثير من الأحيان.

ومن هذا الفيض، الذي يحمل أولاً خصائص الكاتب، فكراً وأسلوباً وطريقة تعبير، وثانياً صورة متفقة أو مختلفة مع سير حركة المجتمع أو سكونه، حتى لو كانت تعبيراً عن حالة خاصة جداً، فهي إنما تقوم في ذلك مقام المرآة التي تعكس ما يحدث في الخارج على ما يحدث في الداخل، للحظة ربما، أو على امتداد أزمان، في بقعة محددة من الأرض أو على امتداد الكون، تعكسها كمرآة مستوية مرة، مقعّرة مرة ومحدبة مرة أخرى، وربما تعكسها من خلال شكل منشوري أو مكعب أو غيره من الأشكال التي تجعل المسار ينحرف وتعطي للعمل الإبداعي مساراً يختلف عن المسار الذي نبع منه أول مرّة.

وتكون صعوبة كشف واكتشاف النص الابداعي وتفسيره وتحليله من خلال مساره منذ المنبع حتى المصب من خلال ذات الكاتب وحركته في الحياة والمجتمع سلباً أو إيجاباً.

لذلك كان لتعدد المدارس النقدية في الأدب أفق مفتوح، يزداد تفتحاً كل يوم بإضافات لأشكال جديدة من الرؤى تلقي مزيداً من الاضاءات على النص الابداعي لتزيده وضوحاً وتكشف عنه كل أستاره أو بعضها.

فالنص الذي قد يتكشّف من خلال انطباع ينعكس بين ذات المبدع وذات الناقد بحثاً عن جماليات العمل الأدبي، قد يضيء أكثر من خلال تفسيره كرؤية تعكس واقعاً اجتماعياً، وما قد يصعب تفسيره عن طريق التراتب البنيوي يتداعى وينفتح كل غموض فيه، كزهرة تفتح ميسمها للنور والهواء، إذا ما أخضعناه لمنهج النقد النفسي.

والكثير من الأعمال الابداعية تفتح لنا أبوابها إذ ما لجأنا إلى قراءتها وتحليلها عن طريق التحليل النفسي ومنهج النقد النفسي في الوقت الذي قد تصعب فيه ويصعب فهم شخصياتها ودوافع كل منها إذا ما لجأنا إلى نقدها عن طريق أحد المناهج الأدبية الأخرى في النقد، كالنقد الاجتماعي أو الانطباعي أو البنيوي.

- ٢ -

إذا كان النقاد ومؤرخو الأدب في الوطن العربي قد اتفقوا على أن بداية كتابة الرواية لصنف من صنوف الابداع كانت في العام ١٩١٤ م بصدور أول طبعة من رواية «زينب» للأديب الدكتور «محمد حسين هيكل»[1]، فمما لا شك فيه

(١) للناقد «سطرس الحلاق» رأى مخالف في دراسته «نشأة الرواية العربية بين النقد والأيديولوجية» حول تثبيت «زينب» كأول =

أن أول رواية نفسية تحليلية تكتب في الأدب العربي هي رواية «سارة» لعملاق الفكر العربي الأستاذ «عباس محمود العقاد».

وتبدو رواية «سارة» خطأً منحرفاً وشاذاً في سياق كتابات الأستاذ «عباس محمود العقاد». لقد كانت تجربة لم تتكرر، لتصبح هي العمل الروائي الوحيد، الاستثناء من القاعدة الثابتة في تفكير الاستاذ «العقاد» حول القصة والرواية، وصلاحيتها للقول والتعبير.

فرأى الأستاذ «عباس محمود العقاد» واضح في أن الشعر أفضل من القصّة، يقول: «ما أكثر الأداة وأقل المحصول في القصص والروايات، إن خمسين صفحة من القصة لا تعطيك المحصول الذي يعطيه بيت كهذا:

وتلفتّت عيني فمُذ بعُدَت عنها الطُلولُ تلفَّتَ القلبُ

لأن الأداة هنا موجزة سريعة، والمحصول مسهب باقٍ، ولكنك لا تصل في القصة إلى مثل هذا المحصول إلا بعد مرحلة طويلة من التمهيد والتشعيب»[1].

يكتب الأستاذ «عباس محمود العقاد» هذا الرأي رغم أنه قرأ الروائع الانسانية في الأدب الروائي العالمي، قرأ «ليو تولستوي» و «لوينجي بيراندييللو» و «مارسيل بروست» و «تشارلز ديكنز» و «توماس هاردي» و «وليم فولكنر» و «جون شتاينبك» وغيرهم من أعلام الفن القصصي في الشرق والغرب، كما كتب عنهم الكثير. وقد قام باختيار وترجمة مجموعة من القصص القصيرة نشرها تحت عنوان «ألوان من القصة القصيرة في الأدب الأمريكي».

ورغم أن الأستاذ «عباس محمود العقاد» كتب ما كتب من رأي في الفن القصصي، وحاول أن يطبق مفهومه ذاك عن الشعر والقصة في مقطوعات شعرية يحاول أن يجسد فيها رؤيته ورأيه اللذين برزا بعد ذلك في رواية «سارة» إلا أنه لم يستطع الاحاطة بكل تفاصيل التجربة / الحكاية، ولا يعدو قوله الشعري عن موقف واحد يتكرر بأكثر من وجه، كأنه ينظر إليه من زوايا مختلفة.

يقول الأستاذ «العقاد:

«مائدةٌ كم بتُّ أشتاقها
ألقيت في صفحتها بالذباب
أرحتني منها فقد عفتها
فليس فيها مورد مستطاب
فيا زماناً جاء لي مَفعماً
بالفنِّ، أو أسعدني بالعذاب
إن تطلب الشكر على راحتي
ما أجدر اللوم بذاك المصاب!»[3]

ويقول:

«تريدينَ أن أرضى بكِ اليومَ للهوَى
وأرتادُ فيكِ اللهوَ بعد التعبُّدِ؟
وألقاكِ جسماً مستباحاً، وطالما
لقيتكِ جَمَّ الخوفِ جَمَّ التردُّدِ
رويدكِ إني لا أراكِ مليئةً
بلذةِ جُثمانٍ ولا طيبِ مشهدِ
جمالُكِ سمٌ في الضلوع وعتيرةٌ
ترد مهادَ الصَفْوِ غير مُمهَّدِ
إذا لم يكُن بدٌ من ألحانِ والطلى
ففي غيرِ بيتٍ كان بالأمس معبدي!»[4]

ويقول أيضاً:

«خَلِّ الملام فليس يَثْنيها
حب الخداع طبيعة فيها
هو سترها وطلاء زينتها
ورياضة للنفس تحييها
وسلاحها فيما تكيد به
من يصطفيها أو يعاديها
وهو انتقامُ الضعف يُنقذُها
من طول ذُلٍ باتَ يُشقيها
أنت الملومُ إذا أردت لها
ما لم يُرِدْهُ قضاءُ باريها
خُنها! ولا تُخلص لها أبداً
تخلُصْ إلى أعلى غواليها»[5]

ويقول مرة أخرى، ملحاً على الفكرة نفسها:

«هَوَّنتِ خطبكِ جداً
وخلْتُهُ لن يَهونَا
حمداً لكيدكِ حمدا
حمداً يفيض العيونا
بدَّلتِ بالنار بردا
وبالهيام سكونا
إني أمنتُ الفتونا

= رواية عربية. مجموعة كتاب / الرواية العربية واقع وآفاق. منشورات دار ابن رشد بيروت. ط ١/١٩٨١ م.

(٢) عباس محمود العقاد / في بيتي.

(٣) عباس محمود العقاد / ديوان «قصائد ومقطوعات» منشورات دار العودة. بيروت، ١٩٨٢ م.

(٤) عباس محمود العقاد / ديوان أشجان الليل. منشورات دار العودة. بيروت، ١٩٨٢ م.

(٥) عباس محمود العقاد / ديوان أعاصير مغرب. منشورات دار العودة. بيروت، ١٩٨٢ م.

وأنـتِ ماذا أنـتِ؟
قـد هـنـت والله هـنـتِ!
خـذي عشيقـين مثـلي لا بـل خـذي النـاس طُرًّا
يـلقـاكِ هـذا بـليـلٍ وذاك يـلقـاكِ ظـهـراً
إن تخـدعـي رَبَّ نـبـلٍ يخـدعْـك نـذلانُ مَكـرا
وتشربي الجـام مُسرا
حـتى يُـقـال جُـنِـنْـتِ
قـد هـنـت والله هـنـتِ»[٦]

يصف الأستاذ «عباس محمود العقاد» في أحد كتبه لوحة معلقة في غرفة نومه رسمها الفنان «صلاح طاهر» تمثل فطيرة حلوة، يشتهيها من يراها، تكدس على الفطيرة صرصور أو ذباب، إلى جانب الفطيرة وعاء حوى عسلاً، وعلى العسل ذباب أيضاً، ويعلق عليها بأن فيها كل تاريخ الفن، وكل تاريخ الأديان.

ويسرد أحد تلامذة الأستاذ «عباس محمود العقاد» قصة هذه اللوحة فيقول:

«جاء الأستاذ بصديقه «صلاح طاهر» وحكى له: أن فتاة كانت تتردد على بيته... وأنه ساعدها مادياً وأدبياً... وأن هذه الفتاة قد اختارت الأضواء... أضواء السينما... والتف حولها الناس. وكان لا بد أن يكون لها صديق يصورها، وصديق يخرج لها... وصديق ينتج لها، وصديق يكتب عنها... ولم يعد الأستاذ هو الرجل الوحيد في حياتها... وقد حاولت هذه الفتاة أن تستعيد مكانتها في حياته... فرفض... وعندما كان يغلق الباب الأمامي في وجهها كانت تدق الباب الخلفي وتبكي. وأنها حاولت أن تستعطفه فكتبت له خطاباًتعتذر عن الذي حدث.

أما الذي حدث فلا يمكن الاعتذار عنه، لأنها أصبحت مشهورة، وللشهرة ثمن، والثمن تدفعه من جسمها ومن نفسها ومن مالها... وفي زحام الناس حولها اختفى الأستاذ، وهذا طبيعي، ولكن الأستاذ قرر أن يعاقبها وأن يقضي عليها، فطلب إلى صلاح طاهر أن يعدمها في هذه اللوحة. فجعلها «شيئاً» وجعل هذا الشيء يقف عليه الذباب، أو يعفّ عنه... ووضع هذه اللوحة أمام سريره، لتكون نظرته إليها كل يوم نوعاً من البصق عليها.

ثم جعل من هذه اللوحة معنى دائماً لا ينساه: هذه هي المرأة... وكل إمرأة»[٧].

وبغضِّ النظر عما إذا كانت المقطوعات الشعرية السابقة تخص امرأة معينة أو أنها تخص أكثر من امرأة واحدة، وأن الأستاذ «العقاد» تعرض إلى أكثر من تجربة مُرَّة في حياته العاطفية، فإن النتيجة واحدة، وهي الحكم الشمولي على كل النساء بأنهن صاحبات مسلك واحد، لا تتغير طبيعته برغم تعدد الوجوه والشخصيات.

لقد تعذب الأستاذ «العقاد» بتجاربه العاطفية، وما استطاع بالشعر أن يعطي إلا مشهداً واحداً من الرواية المحزنة لتلك المرأة التي استطاعت أن تقتل كل النساء. عندما قتلت حبّها في قلبه ويبدو أنه قد لجأ إلى كتابة الرواية عندما وجد أن الشعر يكثّف لحظة واحدة فقط، ويصور مشهداً واحداً، فكأنه كان يَجلُدُ نفسه بتلك الأبيات كلما حاول الحب العميق في قلبه أن ينفذ بناره من تحت الرماد، لكنه كان بحاجة إلى أداة أخرى، تستطيع أن تعطي التفاصيل وتكشف الزوايا التي حجبتها الظلال.

- ٣ -

يقول الأستاذ «عباس محمود العقاد» مؤكداً رأيه في القصة، بعد أن فضّل الشعر عليها في رأي سابق له:

«إنني لم أكتب ما كتبته عن القصة لأبطلها وأحرم الكتابة فيها أو لأنفي أنها عمل قيم يحسب للأديب إذا أجاد فيه... ولكنني كتبته لأقول أولاً إنني أستزيد من دواوين الشعر ولا أستزيد من القصص في الكتب التي أقتنيها، وأقول ثانياً إن القصة ليست بالعمل الوحيد الذي يحسب للأديب وانها ليست بأفضل الثمرات التي تثمرها القريحة الفنية...»[٨].

لا يخرج الأمر في تصوري عن أهم صفة من صفات الأستاذ «عباس محمود العقاد» النفسية والخلقية، وهي صفة التحدي النابعة من الثقة بالنفس.

فالرواية، نوع من أدب الاعترافات الذي قلَّ من جَرُؤَ على الكتابة فيها من الأدباء والكتاب العرب، ولم يكن له أن يبرز لدى الأستاذ «عباس محمود العقاد، إلا في هذا الشكل الفني النثري، خاصة مع إنسان يملأه الكبرياء وتملأه الثقة بالنفس مثله، ليوضح بعد ذلك الكثير من حقيقة مواقفه مع المرأة وضدها، وليرفع راية التحدي في وجه الآخرين، كتاباً وأدباء، أن يفعلوا مثله، فيعترف كل منهم بأحداث حياته العاطفية، مباشرة، أو بمثل الصيغة التي اختارها هو، النثر الفني في شكل رواية.

ولأن الرواية كصنف من الصنوف الأدبية قد تأسس على يد الأديب «محمد حسين هيكل» حين أصدر رواية «زينب»،

---

(٦) عباس محمود العقاد / ديوان أعاصير مغرب.

(٧) أنيس منصور / في صالون العقاد كانت لنا أيام. منشورات دار الشروق، بيروت / القاهرة، ط ١٩٨٣/١ م.

(٨) عباس محمود العقاد / مجلة الرسالة. سبتمبر ١٩٤٥ م. نقلاً عن سامح كريم / ماذا يبقى من العقاد.

فقد رسم الأستاذ «العقاد» لروايته أن تكون أول رواية نفسية تكتب في الأدب العربي، وبذلك يكون الأول في كتابة الرواية النفسية، بل إن عنوان الرواية في حد ذاته يعطي مؤشراً واضحاً عن كنه هذا التفكير، فهو ينبه ويتحدى، لتكون «سارة» علامة مهمة على طريق الرواية العربية، كما أن «زينب» بداية لها.

وقد كتب الأستاذ «العقاد» قبل سارة كثيراً عن شخصيات كانت تمثل عبقريات وتميزاً بين البشر، من الأنبياء والرسل والخلفاء، إلى القادة والمفكرين والزعماء والكتاب، فكان يكتب عن شخصيات وجدت فعلاً على مدى التاريخ الانساني، وكان دوره في الكتابة عنها ـ التأريخ لها ـ فهما يتعلق بأن لكل إنسان مفاتيح لشخصيته، فإذا ما عرفنا مفاتيح كل واحد منها، أمكننا أن نفسره ونحلل أفعاله وسلوكه على مدى حياته. لكنه هنا في رواية «سارة» يكتسب صفة الخلق، فيجسد شخصياته من هيكل عظمي يكسوه لحماً ودماً، يخلق لها ذاكرة وأعصاباً وأحاسيس، يصفها لنا وصفاً حسياً مباشراً، يعطينا معلومات عن حياتها وثقافتها ونشاطاتها، يعرضها علينا في مختلف وجوهها، من الفرح إلى الحزن إلى الألم إلى الغيرة إلى الحب العميق، إلى المدى الذي لا يحده أفق، ثم يدعونا أن نتوصل إلى معرفة مفاتيحها وتبرير سلوكها وتصرفاتها.

والرواية بهذا المفهوم دراسة تحليلية لشخصية مثلت في حياة الأستاذ «العقاد» معنى لفترة من الزمن، فالملاحظ أن الأستاذ «العقاد» عند تناوله للشخصيات التي ترجم لها وكتب عنها قد اختار مجموعة من الشخصيات التي تعني له وللآخرين كثيراً من الأشياء وتمثل نوعاً من البطولة والعبقرية، وخلاف العبقريات نجد كتبه عن «سعد زغلول» و «عبد الرحمن الكواكبي» و «المهاتما غاندي» و «جورج برناردشو» و «ابن سينا» و «ابن رشد» و «ابن الرومي» و «بنيامين فرانكلين» و «أدولف هتلر». فهي شخصيات بارزة على مدى التاريخ الانساني، كان لها دورها وتأثيرها على الحياة الانسانية في مراحل تطورها، كما أن لها تأثيرها السلبي مثل «هتلر»، أو الايجابي مثل «سعد زغلول» أو «غاندي» على نفس الأستاذ «العقاد».

وهي رواية عن امرأة، وللأستاذ «العقاد» رأي واضح في المرأة أثبته في كتبه الثلاثة عن المرأة: «هذه الشجرة» و «المرأة في القرآن» و «المرأة ذلك اللغز». فهي في نظره «شر لا بد منه». وصفة «عدو المرأة» لم تطلق على الأستاذ «العقاد» إلا لوضوح مواقفه منها، وهي مواقف عدوانية في أغلبها، فكأنه يتحدى نفسه ويتحدى الآخرين، ليكشف عن ضعفه وقلقه ولوعته وألمه، خلال علاقته الوجدانية بـ «سارة» على امتداد مراحلها، ليخرج منها أكثر قوة وأكبر إرادة وأعظم قدرة على الصراع.

فرواية «سارة» تمثل مرحلة من حياة الأستاذ «عباس محمود العقاد»، ونحن نجد تلك الملامح الواضحة بين شخصية «الراوي» وشخصية «همام» في الرواية والكثير من الأحداث والأمور في حياة الأستاذ «العقاد» الشخصية، وبالتالي فهي تكمل جانباً لبعض الصورة التي رسمها الأستاذ «العقاد» لنفسه في بعض كتبه التي أعطى فيها لمحات من حياته، ككتاب «حياة قلم» وكتاب «أنا» اللذين أغفل فيهما الحديث تماماً عن الجانب الوجداني من حياته، عدا فصل قصير ضمه كتاب «أنا» عن فلسفته في الحب، تحدث فيه عن نظرته إلى الحب بصفة عامة ولم يورد فيه أي تفصيلات عن تجاربه التي عاشها. فلم يجد خلال كتبه في حديثه عن نفسه إلا الكاتب والسياسي الذي صنع حياته ومجده لنفسه: إننا لا نجد إلا الشخصية العنيدة الصلبة المتحدية لكافة الأزمان والظروف.

كما أن الرواية صورة لمعركة خاضها الأستاذ «العقاد» تختلف عن جميع معاركه السياسية والأدبية والفكرية، إنه معركة مع الآخر، متمثلاً في «سارة»، المرأة التي تجسد جزءاً من عطش حياته وارتوائها في غضبه ورضاه، في سعادته وحزنه، في حبه وكراهيته، في شكه ويقينه، في كفره وإيمانه، فالرواية إذن هي التي تكمل جزءاً من الترجمة لحياته في جانبها الوجداني.

والرواية أيضاً صورة لمعركة خاضها الأستاذ «العقاد» مع نفسه، ولئن كانت معارك الأستاذ «العقاد» الأدبية والفكرية والسياسية ذات خط ثابت واضح، سواء خرج منها منتصراً أو مهزوماً، فإننا نلمس في رواية «سارة» الأزمة الداخلية التي عاشها خلال تجربته العاطفية مع «سارة». نلمح ذلك القلق الذي كان يتفجر داخله، نلمس الحيرة والشك اللذين عاشهما ولم يستطع أن يتخذ موقفاً فيها إلا بعد جهد كبير، وبعد كثير من الزمن الذي استغرقته فيه رحلته بين الشك واليقين في تجربته العاطفية التي ملكته، فأحس أنها قد صادرت حريته وسلبت قراره وتركته ضائعاً بين العقل والقلب.

والرواية بتركيبتها في بناء الشخصيات تعطي مفتاحاً لفهم شخصية الأستاذ «عباس محمود العقاد». فمقدار ما يسلط الكاتب الأنوار على «سارة» في الرواية، من صفات جسدية وسلوكية ونفسية، ومن تعريف بحياتها وثقافتها وطبيعة تفكيرها، لفهمها وفهم دوافع ما فعلته، يعطي إضاءات عنه هو ممثلاً في «الراوي» مرة وفي «همام» مرة أخرى، ليوضح فعله وتفاعله مع هذه التجربة، منذ بدايتها حتى أصبحت

هاجسه الوحيد، وصولاً إلى قراره بإنهائها رغم العذاب الذي عاشه والذي استمرّ معه بقية حياته.

فهذه التجربة العاطفية، المعلقة، المبهجة، المدمّرة، تمثل جرحاً عميقاً في حياة الأستاذ «العقاد»، صياغته لها في عمل إبداعي محاولة لمعالجته، بأن يصب فيه كل ما كان يعتمل في خاطره ووجدانه وعقله، وهذه الصيغة الكاملة والواضحة والشمولية لم تكن سوى الرواية، بعد أن جرب التعبير عن جرحه في قالب شعري أدرك معه أنه لا يعطيه حقه ولا يعرضه العرض الكامل.

نقرأ هذه القطعة الشعرية للأستاذ «العقاد»:

«تريدين أن أرضى بكِ اليوم للهوى
وأرتاد فيكِ اللهو بعد التعبُّدِ؟
وألقاكِ جسماً مستباحاً وطالما
لقيتُك جمَّ الخوف، جمَّ التردُّدِ
رويدك إني لا أراك مليئةً
بلذة جثمان ولا طيب مشهد
جمالك سَمٌّ في الضلوع وعشرة
تردُ مهاد الصفوِ غير مُمهّدِ
إذا لم يكُنْ بُدٌ من ألحانِ والطَلَى
ففي غير بيتٍ، كان بالأمس مَعبدي!»

إنها صورة شعرية وحالة شعورية عظيمة ومكثفة، لكنها بالرغم من كل ذلك لا تمثل إلا موقفاً، لقد عجز الشعر عند الأستاذ «عباس محمود العقاد» عن إعطاء التجربة حقها وحضورها، وهو بهذه الأبيات قد لخص وكثّف قراراً، لكنه كالحكم بدون عرض الحالة نفسها ومناقشتها، إنه يقدّم لنا الموقف الأخير من الرواية بعد كل الصولات والجولات للوصول إلى هذه النتيجة أو رفضها، والأستاذ «العقاد» كأنه يذكّرُ نفسه بهذه الأبيات حتى لا يضعف ولا يلين، كمن يحكُّ جرحه، تبقى ناره تحت الرماد، حتى إذا ما حاولت الذكرى الانبعاث من جديد لتخرج بلهب الجمر من تحت الرماد، فرض عليها مزيداً من الرماد وهو يعيد ويكرّر:

«خذي عشيقين مثلي
لا بلْ خذي الناس طُرًّا
يلقاكِ هذا بليلٍ
وذاك يلقاكِ ظُهرًا
قد هُنتِ، والله هُنتِ»

ولهذا السبب كتب الأستاذ «عباس محمود العقاد» رواية «سارة».

- ٤ -

من خلال كل ما كتب وقيل عن الأستاذ «عباس محمود العقاد» وعن رواية «سارة» نستطيع أن نؤكد أن «همام» في الرواية هو «العقاد» نفسه، ولعل ذلك ما دفع الأستاذ «العقاد» إلى طرح رأيه في الموضوع «القصة بين شخص المؤلف وشخوص أبطاله»، فيطرح سؤالاً يقول: «من مسائل النقد المتجددة مسألة العلاقة بين شخص المؤلف القصصي والشخوص التي يخلقها في قصصه: هل من شروط التأليف الحسن أن يودع المؤلف أولئك الشخوص أفكاره ويخلع عليها صورته، ويمزج بها حوادث حياته؟»[٩]. يزيد في توضيح رأيه أكثر عن العلاقة الواجبة بين شخصية المؤلف وشخصيات قصته في كل قصة غير مكتوبة للدعاية المقصودة، ودون أن يكون تفاهم بين الكاتب والقراء والنقاد على ذلك.

وبعد أن يناقش أمثلة على الترابط بين حياة الكاتب وحياة الشخصيات الروائية في بعض روايات «تشارلز ديكنز» و«ليو تولستوي» و«جورج اورويل» يخلص إلى أن «لا بد أن نستثني في الختام حالة واحدة كالحالة التي استثناها في بداية المقال.. فلا يدخل في السؤال عن العلاقة بين شخص المؤلف وشخص رواياته كل عمل قصصي يوضع للدعاية على تفاهم بين المؤلفين والقراء، ولا يدخل في السؤال كذلك كل رواية يتعمد المؤلف على تفاهم بينه وبين القراء أيضاً أن يجعلها ترجمة لحياته أو وصفاً لبعض مراحلها في قالب القصة. فهذه ترجمة قصصية يسمح فيها بما يسمح به في الترجمة ولو كانت كل كلمة فيها منقولة على لسان المؤلف وعلى لسان البطل في آن»[١٠].

يقول الأديب «طاهر الطناحي» عن تجارب الأستاذ «عباس محمود العقاد» العاطفية:

«... اعترف لنا في حديث معه بحب هاتين الفتاتين وحدهما، فقال: «لقد أحببت في حياتي امرأتين: «سارة» و«مي»... كانت الأولى مثالاً للأنوثة الدافقة، ناعمة رقيقة لا يشغل رأسها إلا الاهتمام بجمالها وأنوثتها، ولكنها كانت مثقفة أيضاً.

والثانية - وهي مي - كانت مثقفة قوية الحجّة تناقش وتهتم بتحرير المرأة وإعطائها حقوقها السياسية. كما كان فيها بعض صفات الرجال من حيث أنها جليسة علم وفن وأدب، وزميلة

(٩) عباس محمود العقاد / خواطر في الفن والقصة. منشورات دار الكتاب العربي. بيروت. ط ١/١٩٧٣ م.
(١٠) عباس محمود العقاد / خواطر في الفن والقصة.

في حياة الفكر، أي أن اهتمامها كان موزعاً بين العلم والأنوثة»![11].

يظل التساؤل مستمراً حول الفترة الزمنية التي مرت بها «سارة» في حياة الأستاذ «عباس محمود العقاد»، ويظل السؤال حول الراوي الذي يشارك شخصيات الرواية المعرفة في كثير من الأمور بما يتجاوز الاستخدام الفني للرواية في العمل القصصي، وكأنه يضيف ويفسر ويستنبط الأحكام والمواقف من خلال معرفة واقعية لا من خلال معرفة روائية كإحدى شخصيات الرواية.

فما هي الصورة التي يمكن لنا أن نكونها عن «همام» أو عن الصورة الروائية للأستاذ «عباس محمود العقاد» كما جاءت في الرواية؟

«قال همام: لا تؤاخذيني إن ذكرت الزواج مرة أو مرتين، فإنني لم أتزوج قط ولا خبرة لي بهذا الجانب من مزعجات الدنيا...»[12].

«فمن تلك الأسباب الواضحة أنه كان يحس إحساساً شديداً أن توديع هذه العاطفة قد يرادف في معناه توديع الحياة.

لأنه تعلق بها في العقد الرابع من عمره...»[13].

«كان همام يحب امرأة أخرى حين التقى بسارة في بيت ماريانا...»[14].

«لم يكن شاباً في مقتبل أيامه، لأنه جاوز الثلاثين وأوشك أن يصعد إلى الأربعين»[15].

«همام» في الرواية رجل أعزب، يسكن وحيداً مع خادمه في شقة، له من العمر بالضبط ثمان وثلاثون عاماً، كان يعيش قصة حب مع «هند» عند التقائه بـ «سارة» وبالتالي فإن علاقته بـ «هند» أخذت الخط التنازلي في الوقت الذي أخذت علاقته بـ «سارة» في الخطّ التصاعدي، استمرت علاقته بـ «سارة» عدة سنوات «ربما مضت سنة أو سنتان على مشاهدة الرواية وهي تذكر كل كلمة قالها في التعليق عليها أو في انتقادها»[16]. ومنذ نشأ الخلاف بينهما، الخلاف الذي خلق قطيعة طويلة انقضت خمسة أشهر «مضت خمسة أشهر قبل أن يجرؤ على عبور ذلك الشارع مشياً على قدميه»[17].

قبل أن تكون القطيعة استمرت رقابة «همام» لـ «سارة» عن طريق صديقه «أمين» أياماً وأسابيع حتى وقفت بدون الوصول إلى يقين حول خيانة «سارة». ثم لتتابع بعد ذلك بأسابيع حيث يتأكد الشك يقيناً، ويخرج «همام» من هذه التجربة كسير النفس والقلب.

إذا استخدمنا هذه المعلومات الحقيقية وجدنا أن أحداث الرواية تقع في الفترة بين ١٩٢٤ م بداية لها و١٩٢٨ م نهاية لها وذلك من واقع أن الأستاذ «عباس العقاد» من مواليد «أسوان» من ١٨٨٩ م، وأن عمره خلال وقوع آخر أحداث رواية «سارة» أي ما بعد القطيعة كان «٣٨» ثمانية وثلاثين عاماً، ومن ذلك نخلص إلى مجموعة من الحقائق...

لقد احتاج الأستاذ «عباس محمود العقاد» إلى عشر سنوات حتى يترجم لنفسه جزءاً من حياته فيكتب رواية «سارة» بعد أن نشرها في مجلة «الدنيا» الأسبوعية كسلسلة من المقالات تحت عنوان «مواقف في الحب»[18]. لتصدر طبعتها الأولى خلال سنة ١٩٣٨ م[19].

فإذا ما تابعنا الحياة السياسية والفكرية للأستاذ «عباس العقاد» خلال تلك الفترة الزمنية أمكننا أن نلاحظ أمرين:

الأول: أن صدور «ديوان العقاد» في مجلد واحد يضم دواوينه الثلاثة الأولى «يقظة الصباح» و«وهج الظهيرة» و«أشباح الأصيل» المعاد طبعها مع الطبعة الأولى لديوان «أشجان الليل» كان سنة ١٩٢٨ م، ويكاد ديوان «أشجان الليل» يكون الديوان الوحيد من بين دواوينه العشرة الذي لم يكتب له الأستاذ «العقاد» مقدمة هو أو أحد الكتاب الآخرين، كما أنه يكاد يكون الديوان الوحيد الذي يُعرِّي فيه الأستاذ «العقاد» نفسه بمنتهى الصراحة ليكشف فيه الانسان العاشق الذائب المشكاك القلق، بكل ما في تفاصيل حياته مع «سارة» كما جاءت في الرواية، وفيه يعلن صراحة نهاية هذا الحب بعد كل ما مرَّ عليه من عذاب وشكوك وقلق وألم، فيقول:

«تريدين أن أرضى بكِ اليوم للهوى
وأرتاد فيكِ اللهو بعد التعبد
وألقاكِ جسماً مستباحاً وطالما
لقيتكِ جمَّ الخوف جمَّ التردد
رويدك إني لا أراكِ مليئة
بلذة جثمان ولا طيب مشهد

---

(١١) عباس محمد العقاد / أنا. منشورات دار الهلال. القاهرة.
(١٢) عباس محمود العقاد / سارة. منشورات المكتبة العصرية. بيروت.
(١٣) عباس محمود العقاد / سارة.
(١٤) عباس محمود العقاد / سارة.
(١٥) عباس محمود العقاد / سارة.
(١٦) عباس محمود العقاد / سارة.
(١٧) عباس محمود العقاد / سارة.
(١٨) عباس محمود العقاد / أنا. مقدمة الكتاب لطاهر الطناحي.
(١٩) عبد المحسن طه بدر / تطور الرواية العربية الحديثة في مصر (١٨٧٠ - ١٩٣٨ م). منشورات دار المعارف القاهرة. ١٩٦٩ م.

جمالكِ سم في الضلوع وعشرة
ترد مهاداً لصفو غير ممهد
إذا لم يكن بد من ألحان والطلى
ففي غير بيتٍ كان بالأمس معبدي

فالشعر، انفعال لحظة، وقد عاش الأستاذ «العقاد» تلك اللحظة عشرات المرات خلال فترة القطيعة بينه وبين «سارة» وعبّر عنها شعراً في مختلف حالاته، في لحظات الفرح ولحظات الأرق، وقد كان الأرجح أن يكون هذا الديوان تحت عنوان «ديوان سارة». لأن جميع ما فيه، حتى القصائد الوطنية، فيها ظلال وتأثيرات لمرحلة القلق التي كان يعيشها الأستاذ «العقاد» في علاقته بـ «سارة» خلال تلك الفترة، كما أنه تألق فيها شعرياً بما لا يماثله في دواوينه الأخرى من رقة المعاني وقوتها، وكثافة الصور الشعرية وغناها.

الثاني: أن إندفاع الأستاذ «عباس محمود العقاد» الحاد الذي قارع فيه الملك «فؤاد وهدد فيه بكسر أكبر الرؤوس التي يخطر لها أن تخرق دستور البلاد[٢٠]، هذا الموقف الذي ربما يكون متطرفاً في حدته، كان كأنه سعي من الأستاذ «العقاد» للاندفاع إلى هذه المعركة مع الملك «فؤاد» ليس فقط لأسباب وطنية، ولكن لأنه أيضاً كان في حاجة إلى معركة كبيرة، تشغله وتشغل عقله عن التفكير في «سارة» بعد نهاية علاقته بها إثر تأكده من خيانتها. ومن ناحية أخرى فهو قد أراد أن يثبت لـ «سارة» عظم خسارتها فيه، فها هو، «عباس محمود العقاد» الذي تتحدث «مصر» كلها بمهاجمته للملك «فؤاد» ولا يستطيع الملك أن يفعل له شيئاً، هذا الرجل الذي يصنع نفسه نداً للملك، وينتصر عليه، هذا هو الرجل الذي خسرته «سارة»... كأن الأستاذ «العقاد» كان يناجي نفسه تلك اللحظات التي أخذ صوته فيها يدوي تحت قبة «مجلس النواب» ليثير أزمة من أخطر الأزمات السياسية في «مصر وليسجل عليه هذا الموقف فيساق إلى السجن تحت تهمة «العيب في الذات الملكية».

«عباس العقاد» العاشق هو الذي كان يتحدى في ذلك الوقت، يتحدى نفسه أن يخرج من معركة سياسية منتصراً بعد هزيمة في معركة عاطفية. ويتحدى «سارة» التي ربما راودها تصوّر في أنه هزم وأنه مهتز النفس مضطرب القرار، بمعركة يخوضها ضد الملك «فؤاد» وينتصر فيها.

يقول الأستاذ «العقاد» في رواية «سارة»:

«ولم لا يكون مستطاعاً أن يسلو الرجل امرأة بامرأة مثلها أو أفضل منها؟»[٢١].

ذلك أمر محتمل، بل ربما كان الأمر الشائع بمثل قول الشاعر: وداوني بالتي كانت هي الداء». فلماذا لا يصح هذا مع الأستاذ «العقاد»؟... أي أن يسلو امرأة بامرأة أخرى؟

ذلك يكون لو لم تكن تحكم سلوكه «صفات الفارس»، ولم تحكم شخصيته «أخلاق الفرسان».

فمفتاح شخصية الأستاذ «عباس محمود العقاد» هو «أخلاق الفروسية».

ففي خصاله التي تظهر لنا، سواء من خلال رواية «سارة» ممثلاً في شخصين «الراوي» و «همام» اللذين يعطيان الصورة الكاملة له، أو من خلال ما كتبه عن نفسه في كتابيه «أنا» و «حياة قلم»، نجد خصالاً وسجايا تنبع منها تصرفات وسلوك الأستاذ «العقاد»، فالبطولة والتحدي والكبرياء والكرامة والثقة بالنفس، كلها من صفات «الفارس» الذي يمكن لنا أن نطلق عليه في تصوّره... «الانسان الكامل».

«الانسان الكامل» الذي يكون أستاذاً وأخاً وحبيباً وعشيقاً وصديقاً وأباً، أي أنه الانسان الذي يستطيع أن يوجد بينك وبينه خيطاً مشتركاً.

ولم يتوفر للأستاذ «العقاد» هذا التعدد من الوجوه في علاقاته بالآخرين بمقدار ما تمثّل في تعامله مع «سارة». «سارة» هي التي أيقظت فيه «الانسان الكامل».. حتى لتجعله يحس أنه خالق. لتصبح هي الأخرى في تعاملها معه «إنساناً كاملاً» في نظره.

لذلك كانت طبيعة تعامله معها تختلف تماماً عن طبيعة تعامله مع الآخرين. يقول الأستاذ «العقاد» متحدثاً عن نفسه:... «فعباس العقاد هو في رأي بعض الناس مع اختلاف التعبير وحسن النيّة، رجل مفرط الكبرياء... ورجل مفرط القسوة والجفاء...

ورجل يعيش بين الكتب ولا يباشر الحياة كما يباشرها سائر الناس.

ورجل يملكه سلطان المنطق والتفكير ولا سلطان للقلب ولا للعاطفة عليه.

ورجل يصبح ويمسي في الجد الصارم فلا تفتر شفتاه بضحكة واحدة إلا بعد استغفار واغتصاب»[٢٢].

هذه هي صورة الأستاذ «عباس محمود العقاد» في أذهان الآخرين كما تصورها هو، فما هي صورته الحقيقة؟ كيف يرى هو نفسه بعيداً عن أحكام الآخرين وآرائهم؟ كيف هو الأستاذ «عباس محمود العقاد» من الداخل؟

«رجل مفرط في التواضع ورجل مفرط في الرحمة واللين ورجل لا يعيش بين الكتب إلا لأنه يباشر الحياة، رجل لا

(٢٠) عباس محمود العقاد / أنا.
(٢١) عباس محمود العقاد / سارة
(٢٢) عباس محمود العقاد / أنا.

يفلت لحظة واحدة في ليله ونهاره من سلطان القلب والعاطفة ورجل وسع شدقاه من الضحك ما يملأ مسرحاً من مسارح الفكاهة في روايات شارلي شابلن جميعاً. . .»[٢٣].

بهذه الوجوه المشرقة كان الأستاذ «العقاد» يتصور نفسه، أو كما عرفته «سارة». . . «سارة» لم تجسد في همام إلا هذه الوجوه الحبيبة النظرة، لذلك تعاملت معه في لحظات تجليه على أنه «الانسان الكامل» الذي يظهر مرة في صورة الأب ومرة أخرى في صورة الصديق ومرة ثالثة في صورة الحبيب، إنه الانسان الذي يستطيع أن يشبع حياتها ويملأها غنىً في كل ما تتصل به من حاجات اجتماعية ونفسية وعاطفية وجسدية.

وقد أشبعت «سارة» حياة «همام» في جميع أوجهها «أنا الرجل الوحيد الذي يرى لك كرامة غير كرامة جسدك ويحب أن يعرف لك قيمة أكبر من هذه القيمة. . .»[٢٤].

فـ «همام» يرى أن «سارة» تمثل في حياته «قيمة» لا مجرّد «شيء» عابر قد يحركنا وقد لا يحركنا، قيمة تغيّر داخله، تمنحه طاقة ودفئاً، وقد تدفعه إلى اتخاذ مواقف ترتفع إلى مستوى القيمة نفسها.

لهذا فلم تكن تجربة «سارة» أمراً بسيطاً في حياة الأستاذ «العقاد». لقد كتب عنها ما يقرب من ديوان كامل[٢٥]. كما ظلت تأثيراتها فيما صدر بعد ذلك من دواوين، وظلت التجربة تؤرق حياته حتى سجلها في رواية «سارة» بعد مضي نحو عشر سنوات على انتهاء التجربة.

كما أنها التجربة العاطفية الوحيدة التي فضّل أن يقدمها في رواية رغم أنه لم يسبق له كتابة عمل روائي قبله أو بعده. ومعنى هذا أنها تمثل جرحاً عميقاً في وجدانه وإحدى المحطات المهمة في تكوينه وصقله، وربما إمتد هذا حتى إلى مواقفه السياسية.

ذكرنا أن الأستاذ «عباس العقاد» كان يبحث عن معركة لأنه كان في حاجة إلى معركة تملأ كل وقته وتثير حوله من الضوضاء والكلام أكبر ما يمكن، فها هو إحساس الفخر والبطولة يمتلىء به الفارس «عباس محمود العقاد» وهو يخرج من معركته مع الملك «فؤاد» منتصراً ليغطي به على هزيمته في معركته العاطفية، فهي استعادة للتوازن النفسي قبل كل شيء، واستعادة للثقة وهو النجم الذي يتحدث عنه الجميع وتشير إليه أصابع الجميع.

يعرف الأستاذ «عباس محمود العقاد» البطولة بقوله: البطولة هي أن تعيش على منال ترضاه وإلا هانت عليك الحياة.

البطولة هي أن تحيا ولك شروط على الحياة، لا أن تحيا وعليك للحياة شروط يمليها الجشع والهوى والعرف والمجد المكذوب.

البطولة هي أن تحب الحياة لأنها تستحق حبك، ولا تحبها لأنك مسوق فيها كيفما كانت وكيفما تكون.

والبطولة والاستشهاد بهذا المعنى مترابطان، ولكنه الاستشهاد في سبيل غاية أعلى من غايات المنافع والأهواء، وهو غير استشهاد الغرائز الذي يدفع الحيوان الأعجم أحياناً إلى المجازفة بحياته، وهو لا يدري فيم يجازف وفيم يموت»[٢٦].

ثم يفسر في موضع آخر موقف البطل فيقول: «فإذا وقف البطل بين فتنة الطمع والغواية وفتنة الحرب والسطوة فخطر الأولى عليه أكبر من خطر الثانية وحاجته إلى البطولة التي يقمع بها قوة نفسه أعظم من حاجته إلى البطولة التي يصرع بها قوة خصمه، فليست الغلبة في كل حال هي شأن البطل وإنما تطلب منه الغلبة على النفس أحياناً كما تطلب منه الغلبة على الخصوم»[٢٧].

إن أخلاق الفارس هي التي وجهت الأستاذ «العقاد» في إختياره للعلاج الذي يقاوم به تأثيرات العلاقة الوجدانية المنتهية، فلا يختار خوض مغامرة عاطفية جديدة لينسى حبه السابق، أي يجعل معركته مع امرأة، لكنه يختارها معركة عظيمة، ومع «أكبر رأس في البلاد، . . . مع الملك «فؤاد» شخصياً، فما أصغر معركة تهزم فيها من إمرأة تجاه معركة تنتصر فيها على ملك.

يقول «طاهر الطناحي» عن «سارة» وعلاقة الأستاذ «العقاد» بها: «لم يكن اسمها «سارة». ولكنه اسم مستعار لهذه الفتاة التي وصفها بأنها جميلة بلا مراء، ومع أنها ليست أجمل من رأى في حياته، ولا أجمل من رأى من أيام حبه لها وشغفه بها، ولكنها جميلة جمالاً لا يحتفظ بغيره في ملامح النساء. . . لونها كلون الشهد المصفى، يأخذ من محاسن الألوان البيضاء والسمراء والحمراء والصفراء في قسمة واحدة.

وعيناها نجلاوان تخفيان الأسرار ولا تخفيان النزعات، فيهما خطفة الصقر، ودعة الحمامة. . . وفمها فم الطفل الرضيع مع ثنايات تخجل العقد النفيس وجسمها الفاتن جيد كأنه الحلية الفنية سبكت لتنسجم بينها وفاقاً لتمام الحسن.

وقد دام الحب بينهما عدة سنوات ثم صدم في حبه، وكانت الصدمة منها، وكان الفراق بينهما، وكان بكاؤه

(٢٣) عباس محمود العقاد / أنا.
(٢٤) عباس محمود العقاد / سارة.
(٢٥) عباس محمود العقاد / ديوان أشجان الليل.
(٢٦) عباس محمود العقاد / خواطر في الفن والقصة.
(٢٧) عباد محمود العقاد / ساعات بين الكتب. منشورات مكتبة النهضة المصرية. القاهرة، ط ١٩٦٨/٤ م.

الشديد، وهو يرد إليها ذكرياتها عنده في إحدى حدائق مصر الجديدة، بمشهد من صديق من أخلص أصدقائه... ولم يكن بكاؤه عن أسف عليها، ولكن العقاد كان شديد الحساسية سريع البكاء. وقد أثبتت المراجع العلمية والنفسية أن أقوى الرجال أسرعهم إلى التأثر والبكاء)[٢٨].

وامرأة من هذا النوع، عاش معها الأستاذ «العقاد» سنوات من العاطفة المجنونة في كل نواحيها، التصقت به جسداً وروحاً حتى ليصفها في الرواية بقوله: «تعلق بها وهو في العقد الرابع من عمره، فإذا ما انقطع ما بينه وبينها فمن بفتاة تخلفها في مثل ذكائها ونضارتها وموافقتها؟ وإذا وجد الفتاة فمن له بالقلب الذي يلبي دواعي الصبا وينزع منازع القوة ويتقد ويخبو على حسب المشيئة، ويخامر اليوم في عاطفة مرجوة وقد كان بالأمس في عاطفة بائسة مضيعة؟»[٢٩]. امرأة كهذه، ألا يمكن أن تلعب دوراً كبيراً في حياة الأستاذ «العقاد» بما يمكن أن يؤثر فيه من اتخاذه لقراره السياسي ومعاركه، المنتصر فيها والمهزوم؟

أليس ذلك دافعاً لأن يستميت الأستاذ «العقاد» في آرائه السياسية ليزداد تصلباً وتزداد حدّة وكأنه يخوض معركة الفروسية التي ينتصر فيها فيصبح ملء السمع والبصر لكل الناس، أو يموت ليصبح في أنظار الناس بمثل الصورة الأولى، يضاف إليها أنه يصبح بذلك شهيد الرأي وشهيد الموقف السياسي والبطل الذي دفع حياته ثمناً لرأيه ولمبادئه.

ذلك ممكن جداً إذا عرفنا أن مواقف الأستاذ «العقاد» السياسية منذ سنة ١٩٣٠ م فما بعدها أصبحت أكبر وأكثر.

يقول الأستاذ «رجاء النقاش» في معرض استعراضه لمواقف «العقاد» السياسية والفكرية خلال مراحل زمنية من عمره «كانت سنة ١٩٣٠ م في حياة العقاد السياسية سنة صعبة وقاسية، ولكنها كانت سنة مليئة بالنضال، ولعل هذه السنة بالذات، أن تكون أكثر السنوات في تاريخ العقاد السياسي كله إشراقاً وامتلاء بالمواقف العنيدة والصلبة، وقد انتهت هذه السنة بدخول العقاد السجن، بعد الحكم عليه تسعة أشهر، عقاباً له من جانب الملك والرجعية على مواقفه الشجاعة»[٣٠].

فهل استمرت ظلال حب «سارة» تغطي حياة الأستاذ «عباس العقاد» لتساهم في صنع مواقفه وتزيده حدة في الرأي وتصلباً في الموقف، حتى ليمكن أن نقول إنه كان يخاطب «سارة» في قصيدته «على ضريح سعد» بمقدار ما يؤبن سعداً.

«إلى الذاهب الباقي ذهاب مجدد
وعند ثرى سعد مثاب ومسجد
إلى مرجع الأحرار في الشرق كله
إلى قبلة فيها الامام موسد
نحيى من الدنيا التي نستعيدها
مكاناً من الدنيا له العود أحمد»

حتى يختم القصيدة بقوله:

«وكنت جنين السجن تسعة أشهر
فهأنذا في ساحة الخلد أولد
ففي كل يوم يولد المرء ذو الحجى
وفي كل يوم ذو الجهالة يلحد
عدائي وصحبي لا اختلاف عليهما
سيعهدني كل كما كان يعهد»

إن الأستاذ «العقاد» في هذه القصيدة يخاطب «سارة» بمثل ما يخاطب روح «سعد»، فقد مضى «سعد زغلول» بصورته المشرقة في ذهن الأستاذ «العقاد» ولذلك ظل ضميراً له، يعيش معه وبه رغم وفاته، ويعاهده على أن يكمل المشوار حتى نهاية الشوط في نفس الطريق، لكن «سارة» ميتة / حية في ضميره ووجدانه، وإشارته إلى أنه ولد من جديد، خطاب موجه لـ «سارة» بأنه الانسان الذي ولد ولادة جديدة بعد خروجه من السجن لا سيطرة لها عليه، فقد انتهت من حياته بانتهاء حياته وهو يدخل السجن، أما اليوم فهو يعيش حياة جديدة لا مكان فيها لـ «سارة»، لكنها ولادة لا تلغي العهد في الدفاع عن الحق والخير والجمال وكل القيم النبيلة التي عاش لها الأستاذ «العقاد» ودافع عنها.

وهكذا خرجت «سارة» من حياة الأستاذ «العقاد» أو هي ماتت في عقله، لكنها لا زالت تحرك بعضاً من وجدانه، كيف لا، وهي التي ظلت تتسلل إلى حياته خطوة خطوة حتى أصبح الاستغناء عنها أمراً أشبه ما يكون بالمستحيل:

«راح همام ينسرق من نفسه وهو يدري تارة ولا يدري تارة ولا يدري تارة أخرى، حتى ابتلعته اللجة وشغلته سارة عن كل شاغل، أو أصبحت على الأصح ممزوجة بكل شاغل. بعد أن كانت في بداية التعارف بينهما واحدة من ألوف وملايين يشملهن عنوان النساء مفضلة إن حضرت، وتغيب فيغني عنها من حضر، عادت وهي الواحدة وحدها لا يغني عنها سواها»[٣١].

---

(٢٨) عباس محمود العقاد / أنا ـ مقدمة الكتاب لطاهر الطناحي.

(٢٩) عباس محمود العقاد / سارة.

(٣٠) رجاء النقاش / عباس العقاد بين اليمين واليسار، منشورات المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت. ط ١/١٩٧٣ م.

(٣١) عباس محمود العقاد / سارة.

وهكذا هي الأمور عندما تصبح امرأة ما «الدنيا وما فيها».

إنها تصبح «المرأة الكاملة» في «الانسان الكامل» كما أن الأستاذ «العقاد» هو «الرجل الكامل» في «الانسان الكامل».

إنهما متساويان ومتوازنان ولكل منهما قيمة تجعله «الإنسان الكامل» في نظر صاحبه مما يجعل طبيعة التعامل بينهما بمختلف درجاتها تعاملاً بين ندين متكاملين وليس تعامل درجة أعلى لدرجة أقل.

- ٥ -

عندما نقرأ رواية «سارة» بعناية، ونعيد قراءة بعض الكتابات التي ترجم فيها الأستاذ «عباس محمود العقاد» لنفسه، سنجد أن «همام» و «الراوي» في «سارة» ليسا إلا وجهين له، وجه «العقل الكامل» يمثله «الراوي» ووجه «العاطفة الكاملة» كما يمثلها «همام».

يستعين الأستاذ «العقاد» برأي للكاتب الأمريكي «ونـدل هولمز» في تحديد أن الانسان، أي إنسان، إنما هو ثلاثة أشخاص في صورة واحدة:

الانسان كما خلقه الله... الانسان كما يراه الناس... والانسان كما يرى نفسه.

فالأستاذ «العقاد» كما يراه بعض الناس «رجل مفرط الكبرياء... ورجل مفرط القسوة والجفاء... ورجل يعيش بين الكتب، ولا يباشر الحياة كما يباشرها سائر الناس.

ورجل يملكه سلطان المنطق والتفكير ولا سلطان للقلب ولا للعاطفة عليه.

ورجل يصبح ويمسي في الجد الصارم فلا تفتر شفتاه بضحكة واحدة إلا بعد استغفار واغتصاب»[٣٢].

إنه «الراوي» في «سارة» الذي يظهر لنا بآراء «العقاد» وأفكاره وتحليله ومنطقه وعقلانيته حتى عندما يصف «سارة» يقول:

«إستغرقتها الأنوثة فليس إلا أنوثة... ولعلها أنثى ونصف أنثى، لأنها أكثر من امرأة واحدة في فضائل الجنس وعيوبه، لا لأنها أضعف من امرأة واحدة»[٣٣].

هذا الفهم لأنوثة «سارة» لا يكون إلا لمن عاشرها معاشرة جسدية فعرفها حقاً، إضافة إلى أن «الراوي» يستعير نفس منطق الأستاذ «العقاد» عندما يحاول أن يعطينا إضاءة عن شخصية «سارة» يقول: «ليس بالنافع أن نصفها كما كان يراها همام في أيام صفوه وهيامه، أو نصفها كما كان يراها في أيام نفوره واشمئزازه، أو نصفها كما كان يراها وهو على القرب سائر، أو كما كان يراها وهو على البعد مشوق، ولكننا قد نصفها مزيجاً من جميع هؤلاء فنخلص من وصفها إلى صورة تشبه سارة التي خلقها الله، وتشبه سارة التي يذكرها همام بعد زوال الغاشية وانقضاء سنوات»[٣٤].

و «الراوي» يشترك مع «همام» في الوصول إلى نفس النتائج، بل ربما يسبقه في ذلك، وكأنه يعرّف كل خبايا وجوانيات شخصيات الرواية.

يقول «الراوي» في تحليله وتلخيصه وتفسيره لحياة «سارة» ومجونها «أكبر الظن أن الفتاة على ما بها من جموح وشطط كانت وشيكة أن تستقيم وتتزن لو رزقت زوجاً يوائم شوقها إلى الرجولة ويغلق عليها منافذ الغواية، ولكنها خابت في الزواج فشقيت، ولجت بها الشقاوة حين كفرت بصداقة الصديقات ومؤاساة الشقيقات»[٣٥].

وهي نفس النتيجة التي يصل إليها «همام» من خلال ما روته له «سارة» عن حياتها خلال سنوات ارتباطهما «أدرك مما سمع أنها طفلة فقدت رحمة الأمومة، ونمت وهي لا تعرف إلا جماح الحيوية العارمة، لا تمسكها هداية أم ولا تقوى على حبسها التقاليد الضعاف، مع ذلك الذكاء الوقاد الذي لا تخفى عليه خافية الموانع والمحظورات، وأنها لو سيقت إلى زوج «يملأ عينها» ويحقق معنى الرجولة في رأيها وعاطفتها لاستقرت بعض الاستقرار وقنعت بعض القنوع. ولكنها أخطأت حظها من الزواج وبرمت بفراغ قلبها فلم تعذر الدنيا والتمست لقلبها وحده جميع الأعذار»[٣٦].

فماذا يختلف الوجه الذي يرى به الناس الأستاذ «عباس محمود العقاد» عن الوجه الذي يرى هو به نفسه؟. يقول: «رجل مفرط في التواضع ورجل مفرط في الرحمة واللين ورجل لا يعيش بين الكتب إلا لأنه يباشر الحياة، رجل لا يفلت لحظة واحدة في ليله ونهاره من سلطان القلب والعاطفة ورجل وسع شدقاه من الضحك ما يملأ مسرحاً من مسارح الفكاهة في روايات شارلي شابلن جميعاً»[٣٧].

هذه هي الصورة الحقيقية التي يراها الأستاذ «العقاد» لنفسه، وهي التي عاش بها خلال ارتباطه بـ «سارة»... الانسان الذي تحركه مشاعره وتحكمه لحظة الحياة «وراح همام ينسرق من نفسه وهو يدري تارة ولا يدري تارة أخرى، حتى ابتلعته اللجة وشغلته سارة عن كل شاغل، أو أصبحت على الأصح ممزوجة بكل شاغل. فبعد أن كانت في بداية

(٣٢) عباس محمود العقاد / أنا.
(٣٣) عباس محمود العقاد / سارة.
(٣٤) عباس محمود العقاد / سارة.
(٣٥) عباس محمود العقاد / سارة.
(٣٦) عباس محمود العقاد / سارة.
(٣٧) عباس محمود العقاد / سارة.

التعارف بينها واحدة من ألوف وملايين يشملهن عنوان النساء مفضلة إن حضرت، وتغيب فيغنى عنها من حضر، عادت وهي الواحدة وحدها لا يغنى عنها سواها»[٣٨].

كيف تجسدت تلك الصورة للأستاذ «عباس العقاد» في رواية «سارة»؟ صورة الانسان كما يراها هو في نفسه.

يمتزج العاشق بالكاتب امتزاجاً لا مثيل له، فالروغان في الاجابة عن الأسئلة العاطفية المحرجة المباشرة والهروب من المواجهات العاطفية المفاجئة والتردد في اتخاذ موقف من تكرار اللقاء، والمشكوك المدمرة، والتناقضات التي تتتالى في نفس اللحظة في أعماقه بين حب وولع ونفور وهروب، جميعها متداخلة مع طبيعة العقل الواعي في التفكير والتدبير، والوصول بالمناقشة والتحليل والاستدلال عن طريق الوقائع إلى مجموعة من الاستنتاجات والحقائق.

لذلك كانت «سارة» تملأ حياة «همام».

فمن هي «سارة» التي أثارت فعلها هذا في «همام»؟ ما هي صورتها الروائية؟

يقول «الراوي» عنها: «هي شيء يعرف ولا يعرف...»[٣٩]. فمن هي «سارة» التي يصفها لنا «الراوي»؟ جميلة / لونها كالشهد المصفى / عيناها نجلاوان وطفاوان، تخفيان الأسرار ولا تخفيان النزعات ليست من الروعة بحيث تقسرك على التحديق إليها، وليست من سهولة المرأى بحيث ترسلك ناجياً في سبيلك... / حزمة من أعصاب تسمى امرأة، وهيهات أن تسمى شيئاً غير امرأة / لأنها أكثر من امرأة واحدة في فضائل الجنس وعيوبه، لو أنها تفرقت بين أجسام شتى لكانت فيها خميرة أنوثة يوشك أن تطغى على جميع تلك الأجسام / ليست كالمتدينة التي خامرها الشد في دينها، ولكنها كالمرأة التي لم تتدين قط ولا قبل لها بالتدين / ليست غواية الجسم عندها كجوع الحيوان يشبه العلف، ولا كضجر المدمن يخدره العقار، ولكنها كرعدة الحمى وصدعة الفرح الجموح يتبعها النشاط والمراح كما يتبعها الاعياء والبكاء / تفطن لما في نفس المرأة لأنها امرأة، وتفطن لما في نفس الرجل لأنها امرأة، ويعينها ذكاء موصول بالفطرة وتعبير يتضح في ذهنها وإن يفتضح بعض الأحايين على لسانها / تمييزها ملامح الرجولة ومظاهرها تمييز لا يخطىء لأنه أشبه بالغريزة التي لم تعرف غير الصواب لأنها لم تعرف غير صواب واحد / تلقي كل اعتمادها على صاحبها حتى تكاد تنظر بعينيه وتمشي بقدميه / تحب أن يقطر لها التدليل تقطيراً وأن يشاب أبداً ببعض التوابل والأفاويه / تقرأ أوروبا كما تعبد أزياءها / عاطفتها حية غير أنها مشغولة بشاغل واحد، فلا تهمها الشفقة على المظلومين والمنكوبين ولا تهمها المظالم والنكبات / وثنية في مقاييس الأخلاق كما هي وثنية في التدين، لا تؤمن بالعصمة الإنسانية في أحد ولا في صفة، وشديدة الإيمان بضعف الانسان مع أضعف المغريات / تحب الغلبة في المناقشة على طريقة كل أنثى مع تنوع الأسلوب والعبارة / مذهبها في الكرامة خليق أن يخيف من يحب لها الكرامة، ويود أن يأوي من كرامتها إلى حصن منيع على الطراق»[٤٠].

جميع هذه الأوصاف التي يطلقها «الراوي» تتخذ الجانب العقلاني في الانسان، ذلك العقل الذي يجمع المعلومات ويفرزها ويحللها ويستنتج منها أو يستدل بها، لكنها لا تنبىء قط عن أحاسيس العاشق التي نجدها على لسان وفي وجدان «همام». إن الصورة هنا مختلفة تماماً «الرجل يعشق الأنثى من مبدأ الأمر لأنها امرأة بعينها: امرأة بصفاتها الشخصية وخلالها التي تتميز بها بين سائر النساء، ولكنه إذا أوغل في عشقها وانغمس فيه أحبها لأنها «المرأة» كلها أو المرأة التي تتمثل فيها الأنوثة بحذافيرها وتجتمع فيها صفات حواء وجميع بناتها، فهي تثير فيه كل ما تثيره الأنوثة من شعور الحياة، وأي شعور هو بعيد من نفس الانسان في هذه الحالة؟ إن الأنوثة لتثير فيه شعور القوة، وشعور الجمال، وشعور الألم، وشعور الجموح والانطلاق من قيود المنطقة والحكمة، وشعور الانسان كله، وشعور الحيوان كله، بل تشير فيه حتى الشعور بما وراء الطبيعة من أسرار مرهوبة ومن أغوار لا يسير مداها في النور والظلام، لأن المرأة حين تمثل الأنوثة هي مناط الخلق والتكوين، وأداة التوليد والدوام والخلود، وهي مظهر القوة التي يبديها كل شيء في الوجود وكل شيء في الانسان»[٤١].

حتى لغة الخطاب تكاد تتنافر بين «الراوي» و«همام». فلغة العقل تختلف تماماً عن لغة القلب، والمنطق الذي يستدل به العقل يصبح مشاعر مرهفة، تتجاوز حدود المعقول في إحساسهابكل ما يحيط بها من ظواهر الحياة، ذلك لأن «سارة» أصبحت في حياة «همام» كل الوجود.

دخلت «سارة» حياة «همام» صدفة في لقاء لدى خياطة كان يعرفها، لقاء كان يجسد علامة فارقة في حياة «همام» يصفه فيقول: «جاء اللقاء كما تجيء معظم الحوادث الكبرى في معظم التواريخ والسير»[٤٢]. فاللقاء كان يشكل حادثة

(٣٨) عباس محمود العقاد / سارة.
(٣٩) عباس محمود العقاد / سارة.
(٤٠) عباس محمود العقاد / سارة.
(٤١) عباس محمود العقاد / سارة.
(٤٢) عباس محمود العقاد / سارة.

كبرى أولاً. وفي حياة «همام» ثانياً، اللقاء وما تبعه بشكل منعرجاً كبيراً وأحدث ما يشبه الانقلاب الكامل أصبح به «همام» كتلة من الشعور والحواس «أصبح جزءاً من الشمس والهواء والجو، ولم يعد جزءاً من عالم الانسان»[٤٣].

وقد كان «همام» يحب إمرأة أخرى حين التقى «سارة» في بيت الخياطة ماريانا. يحبها الحب الذي يجعله ينتظر الرسالة أو الهاتف كما ينتظر العاشق موعد اللقاء، لكن «سارة» إستطاعت أن تطرد كل طيف للأخريات في عقل ووجدان «همام». اكتسحت بحيويتها وشبابها وفتنتها وعبثها كل السدود وحطمت كل القيود، وجعلت منه مخلوقاً ثورياً لا يسير على الأرض وإنما يرتفع ويخلق من السماء.

وقد أدرك «همام» مفتاح شخصية «سارة» كما أدركه «الراوي» وكما انتبهت إليه «سارة» نفسها «إن المرأة لا تتهالك على اللذات إلا أن تفقد الرجل الذي يفوق اللذة في روعها فتحب الرجل لأجل اللذة بدلاً من أن تحب اللذة لأجل الرجل الذي تهواه وتستكين إليه»[٤٤].

وقد حاول «همام» أن يشبع «سارة» على جميع المستويات والأوجه.

أخذ دور الكاهن وأخذت دور الخاطئة.

لعب دور الأب مع ابنته الطفلة.

أشعرها بدور الناصح تجاه الأم المنحلة.

تعامل معها كما يتعامل الصديق مع صديقته.

كان معها معلماً يعطي من علمه ومن حياته دروساً لتلميذته.

عشقها كما لم يعشق مخلوقة من قبل ومن بعد.

يتلخص تصوّر «همام» لـ «سارة» على أنها نموذج «الانسان الكامل» الذي يعطيك في كل لحظة وجهاً من وجوه الانسان العادي، متصوراً أنه فهمها فهماً كاملاً قد لا تستطيع الوصول إليه حتى هي:

فجأة تنقلب الأحوال وتنزرع بذرة الشك في قلب «همام» لتنقلب المرأة التي كانت كل نساء الأرض عنده.. كل ما يخفق له قلبه، فتصبح بين مساء وصباح وهي لهو ساعة ومتعة فراغ...

إنه إذن الطوفان.

أكانت تلك السنوات من الحب والعشق والشفافية والنور وهماً؟

رؤية في منام انتهت بيقظة مفجعة؟

كذب وغش وزيف وقصور في الأحلام بنيت في الهواء؟

ما أفظع الصورة، وما أكبر هول الجحيم الذي ينفتح فجأة فيقتلع كل ما يضمه هذا الكون خواطر تنبري وتتتابع لا تترك الواحدة منها فرصة أمام الأخرى إلا لتزيد من فظاعة الصورة وتزيد لون الظلام سواداً.

والقلب الوله المعذّب يتفحّم، وتشتعل النار فيه من جديد فيتفحّم أكثر ويتناثر شظايا.

- ٦ -

وكذلك فقد تفحّم قلب «همام» وانفتحت أمامه كل البراكين تنفث حممها ولهبها وليبها، لكن العقل الواعي الذي يجمع الدلائل والبراهين، يحللها بمنطقها ويفلسفها ويفسرها، يحضر ليناقش ويحاول أن يخرج بقرار.

لقد اعترفت له «سارة» بعلاقتين سابقتين، وقد عرفها فلماذا لا يعرفها غيره؟ ولم يصعب عليه أن ينال عطفها، فلماذا يصعب على غيره أن يناله؟ فماذا هو صانع؟ أيفارقها؟ ذلك عسير. أيستبقيها على أن يكون لها وحدها ولا تكون له وحده؟ صعب. صعب جداً.

من هو القاضي هنا؟ ومن الجاني؟ ومن الفريسة؟ ومن صاحب الفصل وشارع القانون؟

تواجه كل تلك الأسئلة العقل الواعي وقد سلبته الطمأنينة وراحة البال، والسؤال لا زال يلاحق «همام»... «لم يبق إلا أن يقبلها على أن يستغرق هو في حبها ويسمح لها هي أن تفرغ لغيره وهذا مستحيل، أو يقبلها على أن يلهو بها وتلهو به وهذا أيضاً مستحيل، أو يسوم نفسه قطيعتها وهذا ما قد عول عليه، وظن أنه باستطاعته وقدر عليه خمسة أشهر»[٤٥].

كل ذلك والأمر كله لا يزال شكاً في ذهن «همام».

لقد كانت كل الصور التي تتداعى إلى مخيلته تتنافى تماماً مع ما كان يرسمه في عقله وفي وجدانه من صورة لها وله «لأنني أنا الرجل الوحيد الذي يرى لك كرامة غير كرامة جسدك ويحب أن يعرف لك قيمة أكبر من هذه القيمة»[٤٦].

يتمادى «همام» في دور الواعظ بعد أن تلاشى انبهار «سارة» به، شخصاً وسلوكاً ومعارف وحبيباً وصديقاً وعاشقاً، إنه لا يرى فيها تلك اللحظات إلا المرأة الخاطئة، المرأة التي أحب وارتبط بها زمناً، ثم يجد نفسه فجأة خارج دائرة حياتها فيحاول دخول الدائرة بصفة الصديق المشفق المتألم على ما صارت إليه «لست أنت التي تشعر بالسعادة في هذه العيشة الأسيفة.

(٤٣) عباس محمود العقاد / سارة.

(٤٤) عباس محمود العقاد / سارة.

(٤٥) عباس محمود العقاد / سارة.

(٤٦) عباس محمود العقاد / سارة.

غيرك من النساء تنعم بها وتستطيبها ولكن شقاءك أنت بها لا يعدله شقاء.

أنظري إلى وجهك في المرأة وانظري إلى ألم ضميرك الذي يبكيك كثيراً ولا ريب في ساعات الوحدة والانفراد».

«وماذا في الحياة بعد فقد الثقة وفقد احترام الشعور؟

إما أن تألفي العيشة التي تؤلمك الآن وهذا هو موت النفس الذي يموت به كل سرور صحيح.

وإما أن تتعذّبي بها أبداً بغير عزاء يهون عليك فقد الصحة والنضارة».

«كان ذلك وأنت تشعرين إلى جانبك بنفس إنسانية تحنو عليك وتفكر فيك وتجتهد في عذرك ما استطاعت، وترعاك في الغيبة والحضور».

«ولكن ليست كل امرأة واجدة تلك النفس العطوف التي تفهم الدنيا وتفهمها وتحب لها الخير لغير غاية وتهتم بها وحدها بين جميع الناس وتراها أهلاً للرضى والغضب والشكر والملام. أنت أم فاذكري ذلك جيداً».

«أنت في حياة التجرّد والانفراد عرضة لكل شيء وفريسة رخيصة لكل واش أثيم، وكم جنى عليك حرمانك من أنس القرابة الشقيقة وحنان الأم الرؤوم ومعيشة الزوجية الهانئة، فخسرت السعاد وأخذ عليك اليأس عاطفة الرحمة والاخلاص».

«وما تمنيت ولا أتمنى شيئاً كما أتمنى أن أراك بعين الاعجاب والفخر والمحبة، ولكني أقول لك وأنا آسف: إن فقدك لم يكن هنيئاً عليّ في وقت من الأوقات كما هو هين على الآن.

افهمي إذن أنها كلمة إنسان يذكر برهة من حياته ويود أن يحتفظ بهذه الذكرى نظيفة شريفة إلى آخر أيام الحياة»[٤٧].

كلمات. تخفف شيئاً وتثير أشياء.

وكل ذلك بعد قطيعة خمسة أشهر، وطائر الشك يخلق فوق الرؤوس.

ألم ممزوج بالشفقة، حب ممزوج بالشك، اغتناء ممزوج بحالة من الافلاس الشديد، حالة تبدأ فيها بكلمات وتنتهي منها بكلمات، ولا تستطيع الكلمات مهما كانت حساسة ومعانيها أن تعطي تلك اللحظات في زمن العاشق محتوى أكبر من أنها كلمات.

وتنقلب الحالة من الشك إلى اليقين لتأخذ بعداً آخر، ويتخذ فيها الاحساس بالزمن معنى آخر، فالملاحظ اهتمام الأستاذ «العقاد» بالزمن وإلحاحه الشديد بالتركيز عليه فيما يتعلق بشخصية «همام» بالدرجة الأولى، ثم اختلاف الاحساس بالزمن داخل الرواية من فترة إلى أخرى ومن موقع إلى آخر، وفقاً لحالته النفسية ووفقاً لما إذا كان يناقش لحظته وأموره وهو داخل الحالة العقلية أو داخل الحالة الوجدانية.

فهناك أولاً الزمن الواقعي الذي يعيشه «همام» و«سارة»، وهو الزمن الذي تدور فيه أحداث الرواية وعمر كل منهما خلال تلك الفترة، فمن خلال ما سبق عرفنا أن نهاية أحداث الرواية كانت خلال سنة ١٩٢٨ م وبدايتها خلال سنة ١٩٢٤ م.

ففي الحالة العقلية يناقش «همام» مسألة الزمن بمنطق، يحلّل، ويقارن، ويستنتج، يقول «همام»: «لقد اعترفت له بعلاقتين سابقتين: إحداهما متينة مستحكمة طويلة، والأخرى هوجاء حامية سريعة، وإحداهما مع كهل يقارب الأربعين والأخرى مع فتى في نحو الخامسة والعشرين»[٤٨]. إن «همام» هنا يطلق لفظة «كهل» على عاشق «سارة» الأول، لأن عمره يقارب الأربعين، فماذا عن «همام» نفسه؟...

«قالت: أيتغير عمرك بتغير أسباب السؤال؟ على أنني لا أنوي أن أدعك تطيل التخمين، وأريد أن أفرض لك اثنتين وثلاثين سنة إذا كنا متفقين في نسبة السن كما اتفقنا في غيرها من المقارنات... فإنني أنا في الثالثة والعشرين، وينبغي أن يكون عمر المرأة نصف عمر الرجل مضافاً إليه سبع سنوات.

قال: بل تسمحين أن يكون عمرك خمساً وعشرين ليتفق الحساب من الطرفين»[٤٩].

إذن فعمر «همام» هنا ستة وثلاثون عاماً، أما عمر «سارة» كما تذكر هي فثلاثة وعشرون عاماً.

وفي موضع آخر يقول «همام» في تفسير أسباب حبه لـ«سارة»: «لأنه تعلق بها وهو في العقد الرابع من عمره»[٥٠].

فمن خلال الوهم الذي غزا عقل «همام» بأن سن الأربعين كما هي سن اليأس للمرأة هي أيضاً سن الكهولة بالنسبة للرجل، وذلك التصور الخطأ ربما يكون هو الذي قاد خطاه إلى تصورات أخرى أفسدت علاقته تلك، فسن الأربعين هي سن العقل والفهم، للحياة وللبشر، وهي أيضاً السن التي يعرف فيها الإنسان قيمة الأشياء ويحسن عيشها بأفضل ما تكون، عن فهم وعن إدراك، عن معرفة بقيمتها الحقيقية، وربما كان إحساسه بفداحة خسارته «سارة» لإدراكه

(٤٧) عباس محمود العقاد / سارة.

(٤٨) عباس محمود العقاد / سارة

(٤٩) عباس محمود العقاد / سارة.

(٥٠) عباس محمود العقاد / سارة.

بقيمتها في حياته ومعرفته حالة الخواء التي سيعيشها لو انفصل عنها. لكن ملامح اليأس التي صاغت سلوك «همام» وهو يدرج نحو الأربعين أحبطته تماماً وأخرجت منه الحكم الذي حكم به على حياته الوجدانية وجعله يعيش في محيط من اليأس بعد أن عاش الشك والقلق والغيرة وكافة المشاعر المحزنة «إذا انقطع ما بينه وبينها فمن بفتاة تخلفها في مثل ذكائها ونضارتها وموافقتها؟ وإذا وجد الفتاة فمن له بالقلب الذي يلبي دواعي الصبا وينزع منازع الفتوة وينقد ويحبو على حسب المشيئة ويغامر اليوم في عاطفة مرجوة. وقد كان بالأمس في عاطفة بائسة مضيعة؟»[٥١].

إن «همام» هنا لا يخشى فقط من انقطاع صلته «بسارة» لكنه أيضاً يائس من وجود من يحل محلها ويفعل فعلها معه، وحتى إذا ما وجد من تحل محلها وتفعل فيه فعلها ليعيش أياماً وسنواتٍ حلوة كالتي مرّت به مع «سارة» فليس لديه القلب الذي يغامر ويخوض التجربة من جديد، فلا القلب يستطيع ذلك ولا العمر يمتد ليسمح بذلك.

هذا التلاشي الكامل وهذا الإحباط وهذا الإنكسار تبريره الوحيد هو الإحساس الفظيع بقوة الزمن وقوة تأثيره، أي أنه تفكير عقلاني صرف، يصيب بمقدار ما يخطىء لكنه ينسى أمراً جوهرياً، أن مفاهيم وأحكام العقل لا تسري دائماً ولا تتوافق مع مفاهيم الوجدان. وهذا الخوف من الزمن يتكرر مرة أخرى «لم يكن شاباً في مقتبل أيامه، لأنه جاوز الثلاثين وأوشك أن يصعد إلى الأربعين»[٥٢]. لذلك يبدو هذا الإلحاح في توضيح عمر «همام» ورأيه في هذه المرحلة من العمر، الأربعينات، وكأنه مناشدة من الأستاذ «العقاد» لمن سمح وقرأ عن «سارة» وقصة حبه معها أن يجد له عذراً في كل ما مر به معها، وفي ما بدا عليه من ضعف ويأس وإحباط من نهايتها المؤسفة بحكم سنه التي جاوزت الثلاثين وكادت تصل إلى الأربعين، وكأن الأربعين هي نهاية الحياة لا بدايتها الممتعة، وهو يعطي انطباعاً بأنه عاجز عن تكوين علاقات اجتماعية سوية مع غيرها من النساء، أو التهويل بعدم إمكانية الحياة في تجربة جديدة بنفس القوة ونفس الاندفاع ونفس الحب للحياة وللمحبوب.

لكن هذا الزمن الواقعي يتحول الى مجرد طلال مع الزمن العاطفي الذي عاشه «همام» و«سارة» في الرواية، فمنذ السطر الأول من الرواية نحس هذا (مضت خمسة أشهر قبل أن يجرؤ على عبور ذلك الشارع مشياً على قدميه»[٥٣]. فهذه الأشهر الخمسة لها إيقاع آخر غير إيقاع الزمن الواقعي الطبيعي، يتفجّر مع «همام» في لحظة وهو يلتقي «سارة» في ذلك الشارع «إنه لم ير صاحبته بعد اللقاء الأخير في أثناء تلك الأشهر الموحشة. لأنه اجتنب الأماكن التي عساه أن يراها فيها، ولزم بيته في معظم الأيام وقد علم أنه ما من مرتادٍ أو منتزه يقصد إليه إلا وهو خليق أن يعاوده ببعض الذكريات»[٥٤]. إن الذكرى هنا وكل ما تثيره من شجون في النفس هي التي أوجدت للأشهر الخمسة إيقاعاً آخر جعلها أكثر امتداداً وأكثر طولاً وأكثر وحشة وأكثر قسوة وأكثر حنينا «فارقته على موعد اللقاء في الساعة الخامسة «موعدنا القديم!».

وكأنما كانت كلمة الموعد «القديم» وحدها طلسماً ساحراً نقله من حالة إلى حالة، وأخرجه من الحذر والتردد إلى الراحة والاستبشار... فاحتجبت عنه صفحة الشكوك والآلام والمنغصات ولم ير أمامه إلا «الموعد القديم» بل «المواعيد القديمة» في كل يوم، وما كانت تحتويه من سرور ومتعة وصفاء، وذكريات لا تزال مرتسمة في الذهن، سارية في الجوارح كأنها وظيفة من وظائف الأعضاء. فهذه الحالة الحالمة التي تصل حدّ الفيض في المشاعر لتزيد من تأكيد اللحظات الحلوة والحلم الذي كان يعيشه، تجعل العقل ينتفض والقلب ينتفض والجسد ينتفض، وفي تلك الانتفاضة التي تسري مع الكون كله تتجدد الذكرى وتتجدد المواجع، وتأتي في الخاطر وفي العقل لحظة للوعي «كيف تنقلب هذه المرأة التي كانت كل نساء الأرض عندي، وكل ما يخفق له قلبي، فتصبح بين مساء وصباح وهي لهو ساعة ومتعة فراغ؟ أهذا خداع يجوز على إنسان؟ أو تضمن إذا أنا اتخذتها لهواً ومتاعاً ألا يتمكن اللهو ويطيب المتاع، وأننا لا ننكفىء بعد أيام أو بعد أسابيع إلى استغراقنا القديم وشكوكنا القديمة وعذابنا الأليم؟»[٥٥].

لحظة الوعي هذه هي التي تؤجل اتخاذ القرار بعد التفكير، التفكير في زمن مضى وزمن سيأتي وزمن حاضر يؤكد الماضي والمستقبل أو يلغى الماضي والمستقبل، زمن للتفكير يختصر الزمن أو يلغيه أو يؤكده، لكنه زمن مهما طال أو قصر، هو لحظة لا تستطيع أن تصبح حياة وموتاً في نفس الوقت، فهي حياة أو موت «لا أملك أن أجيبك هذه الليلة، إن أنا قبلتك فلست آمن أن أندم وان أنا رفضتك فلست آمن كذلك أن أندم، ولكن دعيني بضعة أيام ريثما أروض

(٥١) عباس محمود العقاد / سارة.
(٥٢) عباس محمود العقاد / سارة.
(٥٣) عباس محمود العقاد / سارة.
(٥٤) عباس محمود العقاد / سارة.
(٥٥) عباس محمود العقاد / سارة.
(٥٦) عباس محمود العقاد / سارة.

سريرتي على عزم وثيق وأخبرك بما صحت نيتي عليه، غير خائف من عواقب العجلة»[٥٧].

هذا الاحساس الطبيعي بالزمن، بدبيب الزمن في حياة «همام» عندما يكون للعقل سيطرته على الوجدان، يختلف اختلافاً جوهرياً عن إحساس العاشق، فلدبيب الزمن عند العاشق مقياس آخر غير بشريّ، وإن كان يتشكل بتأثير تفاعلات وجدانية بشرية، فيه يضيع الزمن تماماً، يصبح لإيقاعه شكل آخر، يتطاير فيه حتى لكأنه لم يكن في لحظات صفاء وسعادة العاشق «انطوت المسافة إلى حديقة الأهرام بمثل لمح البصر، وزعم همام وهو يناول السائق أجره أن سيارته أسرع ما أنجبته المصانع الحديثة، وأنه حرام عليه أن لا يشترك بها في سباق السيارات»[٥٩]. وينعكس ايقاعه فتصبح حركته معدومة أو حركتنا داخله معدومة في لحظات الشك والقلق والانتظار، يصبح الزمن وحشاً لا تتحرك خطاه من فوق صدورنا، يضغط ويضغط ويضغط حتى لنحس أن نَفَسَنا ذاته يقع تحت ضغط الزمن الساكن «ولا يزال من مرقبه نهباً لهذا الوسواس لمحة بعد لمحة كأن الزمن قد استحال إلى أجزاء تعد بالملايين وملايين الملايين لا بستين دقيقة في الساعة وستين ثانية في الدقيقة!! وكلما تقدم جزء من هذه الملايين تضاعف الوجل وتفاقم الخدر واختلجت الهواجس المثيرة كما تختلج الذرات في قارورة يرجها الشلال الدافق أعنف ارتجاج. وبعد مليون جزء من أجزاء الزمن تقترب الساعة الخامسة فإذا هي الساعة الخامسة إلا عشر دقائق! وبعد مليون أخر ثم مليون ثم مليون تقترب ثم تقترب فإذا هي الساعة الخامسة بالدقيقة والثانية... والويل له إذا تجاوزت هذا الحد ولو إلى دقائق معدودات، لأن الدقائق المعدودات لا بد أن تترجم في لغة الانتظار والهواجس بالملايين بعد الملايين التي لا يجمعها الحصر والإحصاء»[٦٠].

إنه الإحساس المتفاعل بين عاشق ومعشوق والذي يمكن أن نطلق عليه «الزمن الخاص»، يعيش كل منهما في حياة الآخر فيملأها «الرجل الذي يهب للمرأة ساعة من يومه يكتفي منها بساعة من يومها، ولكن هل يكتفي منها بتلك الساعة وهو يهب لها ساعاته وأيامه وينسج حولها ماضيه وحاضره، ويحجب بيديه ضياء المستقبل الذي يطلع عليهما مفترقين كأنه يطمع من الدنيا في غرام بغير فراق؟»[٦٠]. تنتهي اللحظة ويبتعد الزمن بها، وتصبح الحادثة التي تشغلنا أياماً وأسابيع وشهوراً، وربما سنوات، لا يفكر إلا فيها ولا يعتقد أن في الدنيا أمراً جديراً بالتفكير والاهتمام غيرها، نتصور أننا لن نستطيع العيش دونها، يمضي الزمن وتدور الأيام لتشفى الجراح ولتعود تلك الذكرى إلى الخاطر ماضياً انتهى، قد تصحو الأحلام في البداية، وقد يتقلب الإنسان من جنب إلى جنب، قد يكون من حسرة وقد يكون من ندم، والموت نفسه لا صعوبة فيه لولا أنه يغيّر ما تعودناه، وفراق الموتى لا يحزن.

لكن... هل ماتت «سارة» حقاً في حياة «همام»؟...

- ٧ -

من هي «سارة»؟

«سارة» الإنسانة التي أحبها «عباس محمود العقاد». «سارة» التي مثلت خيبة في حياته وأحدثت فيه جرحاً صَعُبَ بُرؤه، فحاول أن ينساه بخوض غمار تجربة جديدة بعد ذلك بسنوات أوصلته إلى خيبة أخرى، حاول أن يمحو جرحه من ذاكرته فلم يستطع، عاش ظلال التجربة العميقة في صور أخرى لعلها تنسيه الأصل، حتى ينتهي إلى القول:

«لم أدر كيف يتاح لي نسيانها
وخيالها من ناظريّ معلّق
حتى نسيت فعدت أذكر أنها
كانت هواي، فلا أكاد أصدق
إن إفتتاني لحظة بغرامها
لأحق بالعجب العجاب وأخلق
ما كنت أجهل من عيوب صفاتها
عيباً، ولكن كل حب أحمق»[٦١]

إذن فهو حب، وهو حب حقيقي، رسم علاماته على القلب وحفر ذكرياته في الوجدان وما مر السنين عليه إلا تأصيل وتثبيت له، فالآه تصدر حسرة عليه، والزفرة تخرج ملتهبة بنار شوق لم تستطع الأيام أن تُبرِّده.

فكما أن حياة كل كاتب، كتاب واحد يكتبه، هو قمة إنتاجه، ما كتب قبله فقد مات له، أو ما كتب بعده ظلال له، كذلك الأمر في التجربة الوجدانية.

ففي حياة المبدع دائماً، كاتباً أو فناناً، حب عظيم وامرأة عظيمة، كل ما عرف المبدع من نساء قبلها مقدمات تقوده إليها، وفي كل من عرف بعدها من نساء، لمحة منها تذكره بها أكثر مما تنسيه فيها.

فكل ما يأتي قبل الحب العظيم، إرهاصات.

وكل ما يأتي بعد الحب العظيم، ظلال.

---

(٥٧) عباس محمود العقاد / سارة.
(٥٨) عباس محمود العقاد / سارة
(٥٩) عباس محمود العقاد / سارة
(٦٠) عباس محمود العقاد / سارة.
(٦١) عباس محمود العقاد / ديوان بعد الأعاصير. منشورات دار العودة. بيروت. ١٩٨٢ م.

الإرهاصات والظلال قد تثير العاشق، قد تشغله، لكنها تظل دائماً عبارة عن مسكِّن يخدِّر القلب العظيم، لكنه لا يجتث جذوره من الوجدان.

وكذلك كانت «سارة» بالنسبة إلى الأستاذ «عباس محمود العقاد». فمن جاء قبلها كان يحفر الطريق لتصل هي إليه، وكل من جاء بعدها إنما هو ظل من ظلالها ووجه من وجوهها بدا له في شكل آخر وفي مخلوق آخر.

ولقد أحس الأستاذ «عباس محمود العقاد» بذلك، وعبر عنه بقوله:

«تجربتي! أين أنت تجربتي؟
يا كتبي، أين أنتِ يا كتبي؟!
لم تمنعي دمعة تؤججها
في القلب نار العذاب والغضب
إليك عني فلست مانعةً
حزني، وقد تمنعيني طربي
وقد تشوبين لي الصفاء وما
تصفين عيشي من كدرة الريب
لهفي على غرة أعيش بها
غفلان، والفاجعات عن كثب
لهفى على جنة أهيم بها
مقهقهاً بين فادح النوب»[٦٢]

فإذا ما لاحظنا أن ديوان «هدية الكروان» نشر خلال بداية الأربعينات، أي والأستاذ «العقاد» قد دخل مرحلة الخمسينات من حياته، كان لنا أن نستدل على عمق التجربة أو التجارب الوجدانية التي عاشها والتي حفرت في قلبه وفي وجدانه.

ونعود إلى سؤالنا المعلّق: من هي «سارة»؟

بالتأكيد ليست هي «ماري إلياس زيادة» المعروفة بإسم «مي زيادة» الأديبة اللبنانية التي أقامت في «مصر». وكان لها صالونها الأدبي الشهير يوم الثلاثاء من كل أسبوع في بيتها.

فعلاقة «مي زيادة» بالأستاذ «عباس محمود العقاد» معروفة للخاص والعام، ينافسه في حبها أعلام السياسة والفكر في «مصر» خلال العشرينات والثلاثينات من هذا القرن، فالعلاقة الأدبية والعلاقة الوجدانية، ورسائل «العقاد» إليها ورسائلها إليه موجودة وقد نشر بعضها وفيه تتضح تلك الخصوصية والتمييز في نظرة كل منهما إلى الآخر، وقد ظل الأستاذ «العقاد» يحتفظ بهذه الرسائل في دولابه الخاص بحجرة نومه حتى وفاته[٦٣].

ورغم أن «مي زيادة» تشترك مع «سارة» في أنها مسيحية الديانة مثلها، إلا أنها تخالفها في أنها لم تتزوج، في الوقت الذي نعرف فيه من خلال الرواية أن «سارة» متزوجة وأم.

يقول «طاهر الطناحي» عن «مي زيادة»: «أحبها العقاد حباً روحياً، وتحدث عنها في آخر كتاب «سارة». وسماها باسم «هند» »[٦٤]. إذن فإن «مي زيادة» موجودة في رواية «سارة». لكنها ليست «سارة».

وهي أيضاً ليست السيدة «فوزية» التي حضرت يوم وفاة الأستاذ «عباس محمود العقاد» وقالت إنها زوجته، وإن «بدرية» الفتاة التي انتحرت في اليوم الذي توفي فيه «العقاد» حزناً عليه بعد أن ابتلعت زجاجة من الحبوب المنومة، هي إبنتها من «العقاد». لكن السيدة «فوزية» وبعد شهر من وفاة «العقاد» لم تستطع أن تثبت أن لها حقوقاً، فهي أصلاً متزوجة، ولا يوجد عقد لزواج سابق من الأستاذ «العقاد» حتى ولو كان عقداً عرفياً، ولا شيء يثبت سوة الصفة للأستاذ «العقاد» رغم أنه كان يحبها وكان حريصاً على أن يهدي لها هدية في عيد ميلادها، واحتفظ في بيته بأسطوانة مسجل عليها حوار بينه وبين طفلة صغيرة، تقول له فيه: «يا بابا...» وهو صوت بدرية[٦٥]. كما أن السيدة «فوزية» مسلمة الديانة.

وهي أيضاً ليست الممثلة المعروفة «مديحة يسري» وقد كان لها قصة حب مع الأستاذ «العقاد» منذ أن كانت فنانة مغمورة، تحاول أن تجد لها طريقاً للنجاح في التمثيل السينمائي وقد ظل يحتفظ بصديري أهدته إليه في دولابه الخاص بحجرة نومه مع رسائل «مي زيادة» إليه ورسائله إليها، ومع الأسطوانة المسجل عليها حواره مع الطفلة «بدرية».

وقد كتب الأستاذ «العقاد» عن هذا الصديري مقطوعة شعرية أسماها «الصدار الذي نسجته»[٦٦]. وقد كانت هذه القصيدة في المرحلة الذهبية من تلك العلاقة الوجدانية بينهما، أي أنها تأتي متأخرة كثيراً عن علاقته مع «سارة» التي تتكثف مرحلتها النهائية في شعر «العقاد» في ديوانه «أشجان الليل» والذي صدرت طبعته الأولى لأول مرة سنة ١٩٢٨ م ضمن مجلد واحد مع دواوينه الثلاثة الأولى. «يقظة الصباح» ١٩١٦. «وهج الظهيرة» ١٩١٧ «أشباح الأصيل» ١٩٢١ م.

فمن هي «سارة»؟

يشير «سامح كريم» إلى تجارب الأستاذ «عباس محمود

---

(٦٢) عباس محمود العقاد / ديوان هدية الكروان. منشورات دار العودة. بيروت، ١٩٨٢ م.

(٦٣) أنيس منصور / في صالون العقاد كانت لنا أيام.

(٦٤) عباس محمود العقاد / أنا، من مقدمة الكتاب لطاهر الطناحي

(٦٥) أنيس منصور / في صالون العقاد كانت لنا أيام.

(٦٦) عباس محمود العقاد / ديوان أعاصير مغرب. وقد صدرت طبعته الأولى في القاهرة سنة ١٩٣٩ م.

العقاد» العاطفية فيقول: «عرف قصاصتين وشاعرتين وباحثة أخرى، وكاتبة تصر على أن تلقب نفسها بالكاتبة الإسلامية، وقيل إنه ساعدها في تأليف كتاب عن السياسة، وغيرهن كثيرات ممن لا يزلن أحياء بيننا»[٦٧].

ويذكر «سامح كريم» شيئاً عن «سارة» يقول: «لكن العقاد أحب سارة «أليس داغر» في الوقت الذي كان يحب فيه مي زيادة «أو على الأقل في الفترة الأخيرة لحبه وبرّر هذا قائلاً: إنه يحب مي ويشتهي سارة».

وتمضي الأيام والشهور سعيدة سعادة الأحلام كما يذكر العقاد في روايته سارة، هذه المرأة التي أذاقته حلاوة الحب ونعيمه الى أن يكتشف أنها على علاقة بآخرين، ويقع العقاد ضحية في براثن الشك الذي كاد أن يفقده عقله، فلم يعرف النوم ولا الطعام ولا الشراب ولا القراءة ولا الكتابة، وقرر أن يكتشف حقيقة هذه الخيانة بنفسه.

ويجوب العقاد الشوارع والطرقات باحثاً عن محبوبته التي ما عادت له الى أن رآها وقد نزلت من بيت له قصة في حياتها واستراحت نفسه عندما تأكدت. وعلى الرغم من أنها ترددت عليه بعد ذلك كثيراً، وراسلته بعد السفر، إلا أن العقاد انصرف عنها وقرر أن يقف بكرامته فوق قلبه وخرج من هذه التجربة كسير القلب مرفوع الكرامة.

(٦٧) سامح كريم / العقاد في معاركه الأدبية والفكرية. منشورات دار العلم. بيروت، ط ١/١٩٨٠ م.

ولم تضع قصته مع سارة هذه أو «أليس داغر» حداً لحبه للمرأة أو لم توصد قلبه أمام أي خفقة قلب، وإلا فلماذا يخفق قلبه بالحب وهو في الخمسين من العمر»[٦٨].

فمن هي «سارة»؟

يقول عنها الاستاذ «عباس محمود العقاد» في الرواية «أنت أم فاذكري ذلك جيداً»[٦٩] ويقول في موقف آخر «ذهبت يوماً الى كرسيّ الاعتراف تستغفر الكاهن عن مخالفة وصيّة من الوصايا العشر التي حفظتها...»[٧٠]. وفي فصل آخر تقول «سارة» عن نفسها: «إنني أنا في الثالثة والعشرين...»[٧١].

إذن فان «سارة» من خلال ما نجده في الرواية من معلومات هي زوجة وأم، عمرها ثلاثة وعشرون عاماً، مسيحية الديانة، وقد ارتبطت بـ «همام» وهو يعيش قصة حب أخرى مع «هند»، فأنهتها وحلت هي بديلاً لها.

نخلص من ذلك كله الى أن شخصية «سارة» في رواية «سارة» هي «أليس داغر» التي يذكرها «سامح كريم». أما من هي «أليس داغر» فلا أحد يعرف.

(٦٨) سامح كريم / العقاد في معاركه الأدبية والفكرية.
(٦٩) عباس محمود العقاد / سارة.
(٧٠) عباس محمود العقاد / سارة.
(٧١) عباس محمود العقاد / سارة.

صدر حديثاً

الساعة العاشرة والنصف ذات مساء صيفي

تأليف: مارغريت دوراس
ترجمة: رنا إدريس

لقد أصبحت ماريا فريسة السعادة. إنّهما يتجاسران. ففيما كان رجال الشرطة يمرّون، كانا لا يزالان يتبادلان النظر. وانفجر الانتظار أخيراً، طليقاً. من أركان السماء جميعها، من الشوارع جميعها، ومن هؤلاء النيام. من السماء فحسب، كانت ستحرر، هي ماريا، إنه كان رودريغو بايسترا. إنها الآن الساعة الواحدة وخمسون دقيقة صباحاً. قبل ساعة ونصف من موته، وافق رودريغو بايسترا على رؤيتها.

ترفع ماريا يدها محيّية. إنها تنتظر. ويد، بطيئة وبطيئة، تخرج من الكفن، وترتفع وهي تشير بدورها عن تواصل مشترك، ثم تسقط اليدان.